الابتكار في العلـــــوم اللسانية والأدبية: تغييرات للأنموذج أم انفتاح عبر تخصصي ؟

Innovation in the linguistics and literary sciences; paradigm changes or transdisciplinary opening?

جاك موشلر Jacques Moeschler

ترجمة د. محمد الملاخ*، جامعة القاضي عياض (المغرب)

elmellakh_mhammed@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2022/01/08 تاريخ القبول: 2022/05/21 تاريخ النّشر: 2022/06/05

ملخّـــص

يهدف هذا المقال إلي تقديم مقاربة دقيقة لمسألة الابتكار والتجديد في علوم اللغة وعلوم الأدب، باعتبارها مسألة قديمة وجديدة في الآن نفسه. لقد شهد منتصف القرن العشرين تحولات في التوجه الميتودولوجي والنظري بموجب صعود المد البنيوي وتقليد الشكلانيتن الروس. ولذلك سيسعى المقال إلي الكشف عن التحولات الكبرى في المجال التقني والعلمي والتي كان أثرها ظاهرا في مجرى التغييرات التي شهدتها تخصصات علوم الأدب وعلوم اللغة.

الكلمات المفتاحية: الابتكار؛ التّجديد؛ الأنموذج: الميتودولوجيات؛ التّخصص.

Abstract

If the question of innovation is an old and new question in the sciences of language, it is good to remember that the sciences of literature have undergone, in the last half of the 20th century, changes in methodological orientation and theoretical, caused mainly by the arrival of structuralism and the Russian formalist tradition. I will indicate what are the big changes in the scientific and technological field which may have had influence for changes in the direction of these disciplines.

Keywords: Innovation; changes; methodological; disciplines; paradigm.

* المؤلّف المرسِـــل

إذا كانت مسألة الابتكار قديمة في علوم اللغة، فمن المستحسن التذكير أن علوم الأدب قد شهدت في النصف الأخير من القرن العشرين تحولات هامة ذات منحى ميتودولوجي methodologique ونظري، بموجب صعود البنيوية وتقليد الشكلانيين الروس. لقد شهدت علوم اللغة باستمرار ثورات ميتودولوجية، فمثلا، لقد قلبت الثورة التشومسكاوية الأنموذج البنيوي السابق لبلومفيلد وهاريس، وانشغلت اللسانيات المعرفية بالمنظورات الرمزية للعلوم المعرفية وبالنزعة الأدنوية التركيبية كذلك، وأخيرا، أعاد الإقحامُ المكثف للمقاربات النمطية Typologiques صياغةَ مسألة الكليات اللغوية. ولقد عرف كلا التخصصين اهتزازات مع نهاية القرن العشرين بموجب تغييرات هامة وبموجب نزاع الأنموذجات Paradigmes وصراع الأجيال، وشهد في الغالب حروبا مؤسساتية (لنستحضر، على سبيل المثال، الفصل بين اللسانيات الصورية في الجانب الشرقي واللسانيات الوظيفية في الجانب الغربي في الولايات المتحدة الأمريكية في العقد الثامن من القرن الماضي).

لقد تغير المشهد العلمي، بشكل ملحوظ، في الربع الأول من القرن الواحد والعشرين، حيث هدأت سجالات المذاهب والمدارس، ويصدق ذلك في اللسانيات حيث استقلت مجالات مختلفة (الصواتة والصرافة والتركيب والدلالة والتداوليات وعلم النفس اللساني واللسانيات التعاقبية واللسانيات التنميطية،ولسانيات اللغات المهددة، ولسانيات اللغات الهجينة pidgins والكريول creoles ومجال البحث في أصل اللغة وتطورها). نكتفي بذكر بعض المجالات التي تملك مجلاتها ومؤتمراتها وتقاليدها الميتودولوجية. وفي الأدب، ليست المسائل بالقدر نفسه من البروز، غير أننا نلحظ في مناصب مباريات الأساتذة الجامعيين بالجامعات تنوعا في المشهد وتنوعا متزايدا في الاهتمامات. هكذا، يُبَيِّن اكتشافُ كُتَّاب جدد ومحاور جديدة للبحث (أدب الرحلة والأدب والتشكيل والأدب والطب...) مقدار التغيير التدريجي وأحيانا التحول السريع لتخصص معين في أهداف بحثه (إنها نهاية تحليل النص والتصور الداخلي للأدب) لينفتح شيئا فشيئا على إشكالات ذات طبيعة بي-تخصصية وعبر-تخصصية-Iter-trans disciplinaire.

ثمة شيء تغير، وسأسعى في الصفحات الموالية إلى فهم الأسباب الرئيسة لهذا التغيير في مجال اللسانيات والأدب على حد سواء.[2] سأتناول المسائل السالفة من خلال ثلاث محطات. في المحطة الأولى، سأشير إلى التحولات الكبرى التي حدثت في المجال العلمي والتقني ذات الوقع على تغيير توجهات هذه التخصصات. وفي المحطة الثانية، سأطرح نتائج استبيان صغير، وذلك في تضاعيف القسم الثالث، وسأختم بخلاصة

تركيبية لمختلف التأملات السالفة.[3] لكن، وقبل الدخول إلى صلب الموضوع، أود إبداء بعض الملاحظات الرئيسة تخص مصطلح الابتكار.

1. الابتكار والتغيير:

لقد كنا شاهدين، في المجال الأكاديمي، منذ عقود خلت على صراع بين القدامى والمحدثين. فلطالما فضل القدامى تثبيت كل من الوضعية الميتودولوجية والنظرية والتخصص ، بينما كان المحدثون يدافعون عن مواقف مبتكرة، ممثلة، على وجه التخصيص، في الدفاع عن تحولات في الأنموذجات.

أود، بهذا الخصوص إدراج تمييز بين الابتكار والتغيير. فالتغييرات في الميدان العلمي، وبشكل خاص في الإنسانيات، ليست بالضرورة تغييرات مبتكرة. فعلى سبيل المثال، يمكن أن نبين أن العودة إلى المقاربات السياقية في تحليل النصوص الأدبية تتعارض مع المقاربة البنيوية (اللاسياقية) و بالتالي تخلق تغييرا (تحولا)، لكن لا يلزم عن ذلك ابتكار، لأنها تجسد العودة إلى تقليد عريق في تأويل النصوص الأدبية في سياقاتها التاريخية والسوسيولوجية والثقافية. ومن جهة أخرى، لا يلزم عن فرض الابتكار تحول ،بالضرورة، في الأنموذج ، سواء أكان ذلك الابتكار نتاجا لفرض المجتمع، أم نتاجا للهيئات السياسية الوصية أم نتاجا للهيئات الداعمة للبحث. ونكتفي بمثال واحد في هذا السياق، يرتبط بميدان اللسانيات الإعلامية، حيث إن الابتكار الذي أحدثه في العقد الثامن من القرن الماضي وصول الإعلاميات والعلوم الحاسوبية وتطور المحللات الأولى للغات الطبيعية، لم يُفض إلى انقلابات نظرية في اللسانيات، لكنه أفضى إلى استعمال النماذج الصورية للتحليل النحوي، والتي تم تقييمها بالنظر إلى إمكانية زرعها في المقاربة الحاسوبية، وبالنظر إلى النتائج التي يمكن أن تُسفر عنها.

هكذا، يعتبر الابتكار مفهوما مصدره الضغوطات الاقتصادية والسياسية والمؤسساتية، ولا ينتج، إلا في النادر، عن تأمل نظري من داخل التخصص. وبالتالي، فهو مفهوم خارجي لا ينبع من النهج العلمي. وبالمقابل يكون تغييرُ الأنموذج العلمي نتيجةَ اختبار الأنموذجات السابقة ونتيجةَ فشلها في حل تناقضات داخلية، أو نتاجَ تنبؤات خاطئة. وبالتالي، فالأمر يتعلق بمفهوم محايث للنهج العلمي. فعلى سبيل المثال، كان سبب بزوغ أنموذج جديد في علوم اللغة نهاية القرن 20 ، يتعلق الأمر بالتداوليات، مرتبطا باستحالة حل النظرية اللسانية (التركيب والدلالة) لمسألة معنى الملفوظات في التواصل اللفظي. ولذلك، لا يمكن اعتبار هذا التغيير ابتكارا خالصا. بينما، ما يُنْجَزُ اليوم، في هذا المجال، وبشكل خاص، استعمال المناهج التجريبية الجديدة (التجارب في

المختبرات) والتطبيقية (استعمال الموارد المرتبطة بمتون ضخمة معالجة إعلاميا) يُعَدُّ ابتكارا حقيقيا.

وإذا ما لزم أن نتساءل عن الأسباب الخارجية التي تدفع التخصصات إلى الابتكار، فيمكن أن نفترض أن ثمة معطيات جديدة يتم إنتاجها، أو ثمة إجابات جديدة عن أسئلة قديمة يتم بلوغها من خلال ميتودولوجيات مبتكرة، أو أسئلة قديمة تختفي ببساطة من حقل التخصصات. يمكن، على سبيل المثال، التنبؤ باختفاء التأملات حول اللغة، واختفاء التحليل النفسي، اختفاء كل ذلك على وجه التحديد، مثلا، في اللسانيات بإيعاز من الحصول على معطيات جديدة مكثفة حول الدماغ، ولكن، أيضا، بإيعاز من النظريات المعرفية المتحدرة من علوم الأعصاب.

يبدو التغيير، إذن، بمثابة دينامية ملازمة للتخصصات ولتاريخها ولبنينتها التخصصية والمؤسساتية. وعلى العكس من ذلك، يعتبر الابتكار سيرورة خارجية، تدفع التخصصات إلى مساءلة ممارستها وتدعوها إلى استكشاف آفاق جديدة، غالبا ما تكون مجهولة. فإذا كان هذا الطرح صائبا، يكون الابتكار، بالأساس، نتاج استعمال المهارات المتوفرة لدى الأجيال الجديدة، بينما تكون التغييرات نتاجا لسيرورة تبدأ فردية ثم تصير جماعية. وتفترض هذه السيرورة تمكنا ونضجا داخل تخصص محدد تحديدا دقيقا.

2. الابتكارات الكبرى في بداية القرن الواحد والعشرين:

يمكن القول، دون أن ندعي تبني الصور النمطية، إن الثورة الصناعية الثالثة التي تمثلها الثورة الإعلامية قد غيَّرت المجال العلمي، سواء أتعلق الأمر بمستوى المعلومة المتاحة أم بالمناهج المستعملة المتحدرة من العلوم الحاسوبية، فلقد سعى كل تخصص إلى استعمال الموارد الجديدة التي تقدمها الإعلاميات. ففي مجال الأدب واللسانيات، شَكَّلَ إنشاءُ المتون الضخمة الموسومة Annotes التجديدَ الجوهريَ. يمنع الاشتغال على المتن الاحتكام إلى أحكام ذاتية، لأن الاشتغال على المتن يُمَكِّن من إضفاء طابع الموضوعية على النتائج المُحصلة من المتون.

ومن جهة أخرى، أسهم الاحتكام إلى المناهج التجريبية في تغيير مسألتين في طريقة الاشتغال، فمن جهة، سمح البحث التجريبي باختبار الفرضيات والتنبؤات. ويُعَدُّ الأمر واردا بشكل خاص بالنسبة إلى اللسانيات النظرية، ومن جهة ثانية، سمح باستعمال المناهج الإحصائية التي تقتضيها معالجة المعطيات الناتجة عن التجارب.[4]

يقتضي، اليوم، البحثُ التحكمَ في مناهج معالجة المتون الضخمة التي تُمَكِّنُ من معالجة المعطيات المُحَصَّلة. ويعتبر ذلك واردا بالنسبة إلى التخصصات سواء أكانت أدبية أم لسانية، إنها التخصصات التي تشكل اللغةُ وتجلياتهُا موضوعَها. لقد غَيَّرَ بقوة، وفي زمن قصير، تكاثرُ المعطيات اللسانية المصحوب بالموارد الميتودولوجية الجديدة المشهدَ العلميَ. من المؤكد أن هذين المظهرين يمثلان الابتكارين النوعيين الأكثر أهمية، وكلاهما بصدد تحويل المشهد العلمي في الميادين الأدبية واللسانية على حد سواء.

3. ثلاثة أسئلة مُوَجَّهَة لتخصصين:

لقد أخذتُ زمام المبادرة، استجابة لطلب الأكاديمية المتعلق بالتفكير في مسألة الابتكار في الإنسانيات، أعني بذلك العلوم الانسانية والاجتماعية، وذلك من خلال طرح ثلاثة أسئلة موجهة لممثلي الهيئات، وهم أعضاء هيئات متخصصة في علوم اللغة والأدب. كانت الأسئلة الثلاثة كالتالي:

1 - ماهي الابتكارات الميتودولوجية الأكثر أهمية في مجال تخصصك؟

2 - ماهي الابتكارات الأكثر أهمية ذات الارتباط بالمحاور التي تم تناولها منذ بداية القرن الواحد والعشرين؟

3 - ماهي محاور البحث الكبرى (الموضوعاتية والميتودولوجية وبي-تخصصية-Interdisci plinaires) التي تتوقع ظهورها في أفق 2030؟

3. 1. الابتكارات الميتودولوجية:

بالنسبة إلى الأدب، ذُكِرت ثلاثة ابتكارات ميتودولوجية:

أ- انبثاق الإنسانيات الرقمية،

ب- العودة إلى مسائل ذات طابع فيلولوجي وتاريخي،

ج- التحول من الموضوعات النظرية إلى المقاربات المادية (تاريخ الكتاب والتحرير، مثلا) والمقاربات الاحصائية للمتون الأدبية.

وفيما يخص اللّسانيات، تتجلى الابتكارات الميتودولوجية في:

أ- استعمال نتائج إحصائية صارمة قابلة للتطبيق في مجال التنميط، وفي مجال التعاقب الزمني،

ب- كشف الأنساق في معطيات المتون، وما ينتج عن ذلك من ثورة مقترنة بالأدوات الإحصائية المستخدمة في العمل الوصفي والفيلولوجي،

ج- ظهور المناهج الكمية والإعلامية، وبشكل أخص في الصواتة والصرافة والتركيب.[5]

2 . 3 . ابتكارات المحاور:

فيما يتعلق بابتكار المحاور ذات الارتباط بميادين البحث في التخصصات الأدبية، يمكن أن نذكر مايلي:

أ- استعمال منظور عبر وطنيTransnationale، على سبيل المثال نذكر المقاربات العابرة للمحيطات والعبر الأطلسية في دراسات أمريكا الشمالية،

ب- العودة إلى مسائل علم الجمال والفيلولوجيا التي طمسها كل من المد البنيوي والمقاربات الداخلية من أولويات بحثه،

ت- انبثاق الآداب المحلية في ارتباط بالعولمة.

وفيما يخص اللسانيات، نذكر مايلي:

أ- مسألة أصل اللغة والتي تستلزم ربط اللسانيات بعلم الأعصاب الفيزيولوجي وعلم الأحياء (ظهور ميدان اللسانيات الأحيائية، وبشكل أخص داخل الأنموذج التشومسكاوي)[6]،

ب- تزايد الاهتمام بالتنوع اللغوي البيني والداخلي،

ت- الاهتمام بالمقاربات النفس لسانية (مسألة المعالجة والاكتساب)،

ث- توظيف اكتشافات علم الوراثة البشرية في اللسانيات التاريخية (العلاقة بين علم وراثة الشعوب وتاريخ العائلات اللغوية).

4. محاور البحث المستقبلية:

حظيت هذه المسألة المحيرة ببعض الإجابات الهامة. لقد تم التطرق في مجال الأدب لتجديد الأبحاث ذات التوجه التاريخي والسياسي، وانتشار الإنسانيات الرقمية وتطور الدروس المفتوحة على الخط(Moocs). وفي اللسانيات، تم التشديد على التطورات التي شهدها التصوير العصبي الذي سمح بإقامة نماذج ذات واقعية أحيائية للأنحاء، وكذلك تطورات معالجة المعطيات التي تُمَكِّن من النفاذ السريع إلى المعطيات مهما كان حجمها، وبشكل أخص الإنتاجات الشفوية العفوية في كثير من اللغات، والتحول من الأبحاث من نمط «الإنسانيات الكلاسية» إلى أبحاث علمية بالمعنى المتداول للبحث العلمي، وهو تحول معزز بمقاربة بينية متداخلة التخصصات تتفاعل مع علم الأحياء وعلم المعطيات.

5. تركيب وخلاصة:

مختصر القول، يمكن صياغة الصورة الموالية للابتكارات الحاصلة والمتوقعة لكلا التخصصين. ففي مجال الأدب، ثمة نزوع نحو تعزيز المقاربات الكلاسية(التاريخية والسياسية والجمالية)، لكن بمناهج مغايرة (الإنسانيات الرقمية)، ثم تبني التيارات المُجَدِّدَة القادمة من تخصصات أخرى مثل التاريخ في إطار منظور عبر وطني.

وفيما يتعلق باللسانيات، يمكن التشديد على توجه الأبحاث حول اللغات نحو مجالات علوم الأعصاب وعلم الأحياء والعلوم الإعلامية، وكذلك النفاذ إلى متون ضخمة وبنائها وصياغة قاعدة المعطيات، والعودة إلى مسائل قديمة، كانت تندرج ضمن محرمات البحث مثل أصل اللغة، كل ذلك في إطار توجه بي-تخصصي (تداخل الاختصاصات) قائم على التفاعل مع علم الأحياء والوراثة ونظرية التطور.

يتبين لنا، إذن، أن الطفرات المبتكرة تسير في اتجاهين: التحول من التخصص بالمعنى الضيق إلى المقاربات البي-تخصصية وعبر-تخصصية، من جهة، ومن جهة أخرى استعمال مناهج تخصصات مغايرة، وبشكل أساس، المناهج التجريبية والتطبيقية. وهكذا، يبدو أن النزوع التجريبي الذي يَعْبُرُ اليوم مجموعة من التخصصات غير التجريبية، مثل الفلسفة، يتجه نحو الانتشار في كثير من التخصصات، فحتى التركيب أصبح تجريبيا حيث تم استبدال أحكام النحوية (نحوي/ غير نحوي) بأحكام متدرجة على سلم ليكرت likert.

هكذا يتبين، أنه في كَنَفِ الحركية التخصصية التجريبية والإمبريقية، تتم التغييرات المبتكرة الأكثر أهمية للربع الأول من القرن الواحد والعشرين.

الهوامـــش:

1) مصدر المقال المترجم: Jacques Moeschler,Swiss Academies communications,vol.13,N1.2018

2) تعتبر الإجابات التي أصوغها موثقة بشكل دقيق بالنسبة إلى اللسانيات، لأنني لساني من جهة، ولأنه من المفروض أن أكون ملما بمجريات تخصصي من جهة أخرى. وفيما يخص الملاحظات التي أقدمها في مجال الأدب فهي أكثر ذاتية، وذلك على الرغم من حرصي على توثيقها.

3)إنني ممتن على وجه التخصيص لكل من توماس هينكلر Thomas Hunkeler فيليب شفايغوسر Philipp schweighauser بالتهاسار بيكل Balthasar Bickel على إسهاماتهم، وأي

خطأ في نقل أفكارهم أتحمل مسؤوليته.

4) مكن على سبيل المثال أن نستشهد بالإقحام المكثف في الأشهر الماضية لتطبيقات من قبيل Amazon Mechanical Turk والذي يمكِّن من تحصيل كم هائل من المعطيات التوثيقية أو التجريبية.

5) تشكل هذه المناهج حاليا محور بحث هام في علم الدلالة الحاسوبي والذي يروم تحديد نماذج دلالية بالاحتكام إلى كم قليل من المعطيات اللغوية.

5) يمكن أن نسجل بهذا الخصوص أن بيانات جمعية اللسانيات بباريس في سنة 1866 قد منعت النشر في موضوع أصل اللغة باعتباره موضوعا غير علمي.